

مؤسسة الشيخ عمي سعيد ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجري [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ جمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الثالثة:

العلاقة بين سكان جربة ووادي مزاب

إعداد

الشيخ: إبراهيم بن محمد طلاي⁽¹⁾

1- الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي، تخرج على يد الشيخ إبراهيم بن بكر حفار، حاصل على العالمية في الأدب وعلوم اللغة من تونس، عضو حلقة العزابة ببني يسجن، إمام وخطيب جمعة ببني يسجن، عضو مجلس عمي سعيد بغرداية، عضو المجلس الإسلامي الأعلى سابقا، مفتش اللغة العربية متقاعد، باحث ومحقق للتراث.

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله تعالى وأستعينه وأستهديه وأشكره ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحابه الكرام.

أيها السادة المشايخ الأجلاء والأساتذة الأعزاء ، أيها السادة الحضور عشاق الثقافة ومعرفة التاريخ -وتاريخ أمة من الأمم سجل أعمالها وجذور عروقتها الضاربة في عمق الحياة والأمة التي لا تاريخ لها لا أساس لها ولا كيان لحضارتها وحياتها. فهي بمثابة الفُطرِ على وجه الأرض بين الأمم-. السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إنني أنتهز هذه الفرصة لأعبر عن عميق شعوري فأقدم أطيب تشكراتي إلى أعضاء معهد عمي سعيد ، هذا المعهد العامر الدؤوب ، والمتبع لسائر دروب المعرفة بشتى أنواعها.

وقد هيئوا لنا هذه الأيام الدراسية التاريخية فتمكنا بفضل نشاطهم عن إحياء ذكريات عطرة وإزاحة الستار عن أعمال جلييلة كانت لرجال السلف الصالح في هذا الوادي وجولات رائدة موفقة هنا وهناك في أوطان الإباضية في الجنوب الشرقي لشمال إفريقيا.

نعم كانت لهم جولات لاحتضان شجرة المعرفة ورعايتها ، وسقيها لتمد فروعها وأفنانها فتؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها -وقد أتت والحمد لله-.

أيها السادة الحضور اسمحوا لي بتقديم هذه الدراسة المتواضعة إثراء للملتقانا هذا وهذه الأيام الدراسية ، في موضوع العلاقات الأخوية التي كانت بين سكان جزيرة جربة ومزاب أو الروابط المعرفية والتراث الحضاري بين الجزيرتين.

وهو المحور الأول لهذا الملتقى المعرفي التاريخي.

جربة ومزاب منطقتان متشابهتان في غالب سماتهما ، توفرت لهما عوامل الاتصال والمساعدة والتعاون ، رغم بعد المسافة التي بينهما ووعورة الطرق فبينهما ما يزيد عن 1200 كلم في اتجاه الشرق الجنوبي.

وسيكون حديثي مقتصرًا على فترة معينة من تاريخ الإسلام في هذه الربع.

وهذه الفترة تبتدئ من عهد دخول الإباضية في حالة الكتمان واستقرارهم عليها بعد تغلب الفاطميين وبسط نفوذهم على شمال إفريقيا في مطلع القرن الرابع ، ثم نزوحهم عنه إلى مصر وما يليها من الشرق الأوسط.

وأخصُّ بالذكر القرون الأخيرة في هذه الفترة عند مجيء الرائد المحنَّك الشيخ عمي سعيد بن علي بن حميد الخيري من جربة والوفد الذي معه إلى مزاب واستقرارهم بها.

وإذا اقتصرنا على هذه الفترة فلأنَّ الموضوع ضبط تحت إطار علاقة مزاب بجربة، ومزاب لم يعرف العمران بالمعنى الصحيح والاستقرار إلا في تلك القرون الأخيرة.

وإلا فعلاقة جربة بالأقطار الأخرى من المواطن التي ساد فيها المذهب الإباضي وانتشر كجبل نفوسة بليبيا وجبر دمر بتونس والجريد وأريغ ووارجلان وأوراس وتاهرت علاقتها بهذه المناطق كانت وطيدة قبل هذه القرون الأخيرة، وكانت جربة في تلك العهود تمثل جزءاً هاماً ومعبراً قيماً بين أراضي الدولة التي أنشأها سلف الإباضية الذين كان لهم النفوذ الواسع في تلك الأقطار.

أيها السادة الأجلاء، إنَّ التعاون والتآزر والأخذ والعطاء لا يتأتى بين مجتمعين متباعدين بمثل تلك المسافة التي ذكرناها إلا إذا توفرت لهما الأسباب وتهيأت الظروف المشجعة الحافزة على ذلك.

وجربة ومزاب قد توفرت لهما من ذلك الشيء الكثير ونخصُّ بالذكر شيئين اثنين :
أولاً: يسود في جربة ومزاب مدرسة إسلامية واحدة فسكان المنطقتين غالبهم بل كلُّهم إباضية المذهب فهما يلتقيان عقيدة وسلوكاً واجتماعياً، فلا بدَّ أن ينشأ عن هذا بين المجتمعين من التفاهم والتعاون ونوعية السلوك ما يفتح السبيل لتلك العلاقات، وييسر الجوار العاطفي والمصاهرة والمواطنة، إلى غير ذلك من مظاهر النشاط الاجتماعي.

ثانياً: الظروف الاجتماعية والبيئية المتشابهة :

إنَّ بيئة مزاب وبيئة جربة قريبتان إن لم تكونا متشابهتين، جربة منعزلة تكاد تكون فقيرة لولا شيء من الثروة السمكية والزراعة. بجوار أهلها هنا وهناك إخوان لهم مسلمون ولكنهم يضايقونهم بتصرفاتهم التي لا تتسم في كثير منها بالعدل والأخذ بالحق. فتركت رسوبات في أنفسهم جعلتهم يتسمون بالحذر، ويتشبثون بالمذهب الذي اختاروه، وأحياناً حتَّى الانغلاق حول أنفسهم.

والمزايون لهم نفس الظروف، بلدهم جزيرة وسط الرمال، أرض غير ذات زرع، يجدون من يجاورهم نفس ما يجده أهل جربة من رسوبات تلك الحقب المظلمة التي أضعفت المسلمين وجعلت بأسهم بينهم شديداً. وكلُّ عامل من العاملين كليل أن يفتح بين المجموعتين آفاقاً واسعة من التعاون والروابط الاجتماعية ما يبقى أمداً بعيداً فيشمل أجيالاً تلو الأجيال.

1- مؤسس نظام العزابة هو أول من سنَّ التعاون والتآزر بين مجتمعات الإباضية:

لا يستطيع المتحدث عن تاريخ الإباضية في شمال أفريقيا أن يغفل عن نظام العزابة وأثره وماله من فضل في جمع كلمتهم وحفظ كياناتهم الاجتماعية من الزيغ، والابتعاد عن نهج الإسلام، وهو الحافظ القوي على تكوين حركة **دؤوب** يتجلى فيها سمات التعاون والتآزر والتوجيه بين تلك المجتمعات ولقد أنشأ مؤسسها - رحمه الله - الشيخ الإمام محمد بن بكر الفرستائي الريغي مستقرا سنة 440هـ/1048م ليحفظ كيان هذا المجتمع، ويقوم بمهمة التوجيه والإصلاح، يتمشى مع حالة الكتمان، نظام يشمل النواحي الاجتماعية دون أن يمسّ بالجانب السياسي تاركاً هذا الجانب لمن يتولى شؤون السياسة أو يتغلب عليها. «فعاثت الإباضية في هذه الأمكنة دون أن يكوّنوا نظاماً سياسياً أو يدعوا إلى تكوينه»⁽¹⁾.

والشيخ الإمام محمد بن بكر لم يخص بعنايته ونظامه هذا بلداً معيناً فقد كان - رحمه الله - يُعنى بتكوين الطلاب من شتى الجهات، ثمّ يرسلهم إلى مواطنهم لتأسيس حلقات العزابة ومشاركتهم فيها بأنفسهم. ولا يُنسى فضل جربة في هذا الموضوع فقد كان عالمها المجاهد العامل الشيخ فصيل بن أبي مسور المتوفى سنة 440هـ تقريباً أوّل المتحمسين له، والملحّن على إبرازه إلى الوجود، وذلك عندما بعث ابنه زكرياء ويونس وابن أخته من جربة إلى أبي عبد الله محمد بن بكر وهو في بلاد الجريد يوصيهم بملازمته وأن يلحّوا عليه أن يسنّ نظاماً يتمشى وحالة الكتمان.

«... فهذا سبب قعوده للحلقة المباركة الصادرة عن أكرم مشاركة بين الشجرتين الطيبتين المسورية والبكرية، بخطبة وإجابة كانتا في الله»⁽²⁾.

وبفضل هذا الشيخ وجهوده في استدراج بقايا الواصلية في مزاب بالحجّة واللين فردّهم إلى الإباضية الوهبية وأدى وظيفة التدريس على أحسن وجه، وبفضل المشايخ من رجال الإباضية الوافدين على مزاب من جربة وغيرها حافظ المذهب على كيانه بفضل نظام العزابة إلى عصرنا هذا⁽³⁾.

2- صور من التعاون والعلاقات الأخوية بين جربة ومزاب:

يستطيع المتتبع لمظاهر العلاقات الأخوية بين البلدين عبر هذه الفترة الطويلة من الزمن أن يصنّفها ويجمّلها في ثلاث محاور: بعثات الطلبة من جربة وإلى جربة، انتقال العلماء إلى مزاب والعكس، تبادل الزيارات والوفود.

1- الإباضية في موكب التاريخ ص255.

2- طبقات الدرجيني ص132 ج1.

3 - نظام العزابة في جربة ص40..

أولاً: انتقال الطلبة وسعيهم وراء الاستفادة والأخذ عن أي عالم يظهر في جربة أو مزاب، إمّا رغبة في الاستزادة وإحاطة بقدر ممكن من المعرفة وإمّا لأنّ أوطانهم لا يتوفّر فيها من العلماء من يتفرّغ للتعليم مثل ما يتوفّر في الوطن المنتقل إليه. وغالبا ما يكون ذلك بعد أن يؤمّ الطالب حواضر العلم في شمال أفريقيا يتخرج منها، وخاصة القيروان وتونس العاصمة. فيجد هذا الطالب من الإمكانيات ما يعينه ويشجّعه على قضاء فترة في الأخذ والاستزادة، فمساجد مزاب بجانبها بيوتات تكون مأوى للطلبة الوافدين من القطرين ولها من الأوقاف ما يعين أولئك الطلبة ويدفع عنهم العوز، وقلّ مثل ذلك في جربة ومساجدها كالمسجد الكبير في حومة الحشان، ومساجد واد الزيب وغيرهما.

نذكر على سبيل المثال الشيخ الشهيد أبا سليمان داود بن إبراهيم التلاتي استشهد سنة 967هـ فقد قصد الشيخ أبا مهدي عيسى بن إسماعيل المصعبي المليكي، نسبة إلى مليكة قرية بمزاب وقد تتلمذ الشيخ أبو مهدي المصعبي على الشيخ أبي سعيد الجربي المعروف بالشيخ عمي سعيد. والشيخ يحيى بن صالح الأفضلي من مزاب من بني يسجن أخذ العلم عن الشيخ أحمد بن يوسف المصعبي الذي استقرّ بجربة.

وأخيرا تلاميذ الشيخ أطفيش -رحمه الله- في مزاب، من جربة: رمضان بن يحيى الليني، والشيخ سعيد بن علي بن تعاريت، والشيخ أحمد بن الحاج يوسف بن سعيد.

يذكر المرحوم الشيخ أبو اليقظان في بعض تقييداته عن تاريخ الإباضية في جربة ومزاب وجبال نفوسة، مُورداً رسالة بعثها الشيخ باسة بن موسى المتوفى سنة 1176هـ يقول عنها: «لقد عثرنا على رسالة وجّهها إلى إخوان له من بني مصعب "مزاب" وهم بجربة يزاولون دروسهم مما ورد فيها: إخواننا الله الله في زيادة العلم ليلا نهارا مساء وصباحا، لأنّ الجهل مطية من ركبها ذلّ ومن صحبها ضلّ، ثمّ يورد أسماء الطلبة يخصّهم بالتحية واحدا واحدا»⁽⁴⁾.

ثانياً: انتقال عالم من منطقة إلى أخرى قياما بواجب التعليم ونشر الفضيلة والتفقه في الدين، كان علماء الإباضية حريصين على نشر العلم والمعرفة والمحافظة على مستوى رفيع من العلوم الدينية في مجتمعاتهم ولا أشدّ خطرا لديهم على المجتمع الإسلامي من الجهل بالدين، «وليس منا من قال: إنّ علم الديانة يدرك بغير التعلّم»⁽⁵⁾.

1- انظر الرسالة في كتاب الإباضية في موكب التاريخ، الجزائر، ص250.

2- عقيدة العزابة لعمر بن جميع.

ومن هؤلاء العلماء الذين وفدوا إلى مزاب تحقيقاً لهذا الغرض صاحب الفضل على مزاب في كثير من الأنظمة والنشاط الاجتماعي والثقافي: الشيخ المحتفل به سعيد بن علي بن حميد الخيري الجربي من علماء النصف الأول من القرن العاشر الهجري جاء إلى مزاب نجدة له من ورطة الجهل والتخلف، ويقال إنه ورد رئيس بعثة من العلماء من جربة ونفوسة طلبها المزابيون من إخوانهم إنقاذاً للموقف المتردي في مزاب فكان منها:

الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي استقرَّ في غرداية، وتعرف العشيرة المنتمية إليه بعشيرة آل عمي سعيد. والشيخ بالحاج بن محمد بن سعيد من نفوسة استقرَّ ببني يسجن وعشيرته تعرف بآل أزيار. والشيخ دحمان النفوسي استقرَّ في بنورة. وقد أتت هذه البعثة ثمارها خاصة ما قام به كلُّ من الشيخ عمي سعيد والشيخ بالحاج محمد.

ومن هؤلاء صاحب الفضل الكبير كذلك على جربة الشيخ يوسف بن محمد المصعبي وابنه من بعده أحمد بن يوسف توفي الأب سنة 1188هـ، لهذا العالم الجليل آثار قيِّمة ومواقف محمودة ونشاط اجتماعي ثقافي، أحيى بذلك الحركة العلمية في جربة، وكان مقرُّ نشاطه بالجامع جامع الشيخ أبي مسور بآجيم.

ثالثاً: تبادل الوفود والزيارات بين مزاب وجربة، لا تمرُّ فترة إلاَّ ويزور عالم أو عالمان مع من يصحبهما من الطلبة ومحبي العلم منطقة من تلك البلدان فتترك زيارته حيوية ونشاطاً لما يقع في تلك الزيارات من تجمع ولما يلقي فيها من دروس ووعظ ولما يقع فيها من بحث علمي والمراجعة والاستشارة في فتوى معيَّنة أو نازلة حادثة.

أذكر على سبيل المثال زيارة الشيخ أطفيش لجربة بمناسبة سفره إلى الحج سنة 1303هـ، والشيخ بيوض الحاج إبراهيم مرتين أو ثلاث، والشيخ محمد الثميني وغير هؤلاء.

وإنِّي أورد كلمة عن الشيخ أبي اليقظان من مؤلف له مخطوط نقل منه الشيخ علي يحي معمر صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ يقول -رحمه الله-: «يمكن أن نلخص بعض المظاهر التي تدلُّ على هذا الترابط في النقاط التالية:

* انتقال بعض الأسر من جهة إلى أخرى وتفرعها وقيادتها لحركة التعليم والإصلاح كما وقع من أسرة أبي عبد الله الفرسطائي في مناطق الإباضية بالجزائر، وكما وقع من الأسر البارونية في جربة، وكما وقع من أسرة آل ورو من مليكة في جربة.

* نجدة نفوسة ومزاب لجربة في محنتها بغزو الإسبان سنة 915هـ.

* خدمة الشيخ اطفيش من مزاب -رحمه الله- لمؤلفات نفوسة وجربة والاستفادة منها، واشتمال حلقاته الدراسية على أعداد من أبناء جربة ونفوسة تخرّج منهم أعلام أمثال سليمان باشا الباروني وعمر العوام.

* تعاون رجال الأقطار الثلاثة في تبادل الثقافة واستنساخ المخطوطات والتعاون على نشر الكتب العلمية والدينية⁽⁶⁾.

هذا ولا يخفى على السادة المحترمين ما لهذه الحركة التعاونية من أثر كبير -ولو كانت علمية ثقافية بالدرجة الأولى- على الناحية الاجتماعية والفكرية من نقل العادات والاقتباس من التقاليد وغيرها من مظاهر النشاط في الحياة.

فلدينا في مزاب أسر تنتمي إلى جربة وأصلها الأول جاء منها، كأسرة آل الفخار في غرداية وقد جلبوا معهم صناعة الفخار وانتشرت في مزاب، وأسرة آل متياز وآل أزاب في بني يسجن وآل الحاج عيسى في العطف.

وفي مظاهر الزينة والملابس التقليدية في الأفراح صور مقتبسة من جربة كأنواع من الحلبي الذهبية معروف «شَارَكَة» وطرّاز من الألبسة الصوفية نقول لها باللسان المحلي «تَجْرِيْت» أي الجريبة تلبس في مناسبات معينة، والحائك الأزرق المعروف بـ«أَزْزَاوُ تُتْوُس» وغير ذلك كثير.

وبعد فإني أرجو أن أكون قد أفدت السادة المجتمعين بهذه اللوحة وأبرزت الخطوط الهامة من العلاقات التي سادت المنطقتين خلال عشرة قرون، يبدو منها أنّ الفترة الأخيرة من تلك القرون أخذت بالنصيب الأوفر من هذه العلاقات، وهي القرون الأربعة الأخيرة، وذلك يعود إلى أسباب لا يتسع المقام لذكرها، وإلاّ فالعلاقة بين القطرين لم تنقطع عبر هذه الحقب الطويلة.

ولا يسعني إلاّ أن أسجّل هذه الظاهرة الهامة بين مجتمعين صغيرين من المجتمعات الإسلامية، تجلّى فيهما سمات التفاني والتضحية والمساعدة لأجل خدمة الإسلام ونشر الفضيلة والدعوة إلى المثل الإنسانية والعمل لها من الخير والمحبة ونشر الإسلام ومحاربة الجهل والفساد. مجتمعان صغيران متباعدان أبت فيهما همم الرجال وفعالية المثل العليا إلاّ أن يصمدوا ويتآزروا رغم الضعف وقلة الإمكانيات، وليت المجتمعات الإسلامية أخذت منهما العبرة فلم تستسلم للغزو والضياع.

وفقنا الله وإياكم لما فيه خير الإسلام وخير الإنسانية عامة والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



مراجع البحث

علي يحيى معمر	الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة 4)
صالح باجينة	الإباضية بالجريد
الشيخ سالم بن يعقوب	رسالة تاريخ بعض مشايخ جربة (مخطوط)
الشيخ سالم بن يعقوب	رحلة الشيخ اطفيش إلى جربة (مخطوط)
الشيخ سالم بن يعقوب	رحلة الشيخ اطفيش من جربة (مخطوط)
أحمد بن سعيد الدرجيني	طبقات المشايخ بالمغرب الجزء 2
	مجموع رسائل الشيخ الحاج إبراهيم بحمان (مخطوط)
	مجموع وثائق مجلس عمي سعيد (مخطوط)
فرحات الجعيري	نظام العزابة عند الإباضية الوهبية بجربة
أبي العباس أحمد الشماخي	كتاب السير (مطبوع)